أبو المهاجر دينار بين الروايات العربية والقراءات الغربية
صور وأبعاد

أ. د. علاوة عمارة
جامعة الأمير عبد القادر - قسنطينة

تعتبر الفترة الإسلامية الأولى من أعقد الفترات دراسة في مجال البحث التاريخي للغياب شبه التام لوثائق الأرشيف والشواهد الأثرية والنمسمائية. إن مؤرخ الأمس وباحث اليوم يعتمد بالأساس على معرفة تاريخية هي في حقيقتها نتاج مرحلة زمنية أخرى غير التي تتحدث عنها مما يجعل التعامل معها اليوم في غاية الصعوبة. وتنطبق هذه الملاحظة بصفة خاصة على عمليات إلحاق بلاد المغرب بالفلك السياسي والديني للإسلام الوسيط المعروفة تراثيا "بالفتح" أين يلاحظ غياب واضح لتدوين تاريخي خاص بالحملات العسكرية قبل القرن التاسع الميلادي. إن التدوين المتأخر جعل الباحثين الكلاسيكيين ينسجون خيالات "تاريخية" اعتمادا على روايات متأخرة ويساهمون في التأسيس "لقادة أسطوريين" تحت طائلة ربط المعلم بذاكرة تاريخية مشوهة ومغلوطة، لا يمكن للدارس تقبلها لتعارضها مع علم نقد النصوص والمعطيات الأثرية المتوفرة. فبعد ارتباط تهودة الأمس بشخصية "القائد العظيم" عقبة بن نافع وترفعه إلى مرتبة الولاية "سيدي عقبة"، تحاول ميلة جادة أن تصنف ماضيها في خانة

"العاصمة الإسلامية" زمن القائد أبي المهاجر دينار. إن هذه الشخصية الكبيرة التي قزمتها الروايات التاريخية لعدم ارتباطها بإديولوجيات قبلية أو سياسية بدأت منذ فترة زمنية تأخذ مكانتها بوصفها صانعة استراتيجية إسلامية جديدة في بلاد المغرب وهي ما تحاول هذه الورقة معالجتها.

صورة واحدة لأبي المهاجر في أربع روايات؟

إن مغرب نهاية السيطرة البيزنطية على مقاطعة إفريقية يتميز ببقاء الثقافة المحلية أو الأمازيغية كأحد الأبعاد الرئيسية للهوية المغربية إلى جانب استمرار حضور الثقافة اللاتينية والديانة المسيحية الرومانية في معظم حواضر المنطقة الواقعة تحت النفوذ البيزنطي. إن هذه الوضعية هي التي مهدت لانتقال المنطقة إلى السلطة الأموية في ظروف لا تزال أغلب معالمه مجهولة. إن الدارس للعمليات العسكرية التي أفضت إلى فتح بلاد المغرب يمكنه أن يميز أربع روايات تاريخية تتحدث عن هذه المرحلة التاريخية الحاسمة:

الرواية العراقية: هي الأقدم زمنيا والأبعد جغرافيا ومبلورها الأساسي هو الإخباري المعروف الواقدي (ت 822/207) صاحب كتب "الفتوح" المتعددة. فإذا كان النص الأصلي لهذا الإخباري قد ضاع فإن معلوماته قد نقلت من طرف تلامذته وعدد معتبر من لاحقيه على امتداد الفترة الإسلامية الوسيطة، من بينهم أحمد بن يحي البلاذري (ت 892/279) وابن أعثم الكوفي (ت 922/310).

الرواية المصرية: تأتي ثانية من حيث البعد الزمني ومبلورها الأساسي هو الإخباري المصري ابن عبد الحكم (ت 257 /870) صاحب "فتوح مصر والمغرب" والتي تعتمد أساسا في نقل الخبر على السلطة المعنوية لليث بن سعد.

الرواية القيروانية: هي الأقرب جغرافيا وتتصف بتناقلها على يد مجموعة من الإخباريين. ليس بالإمكان تحديد بدقة المبلور الرئيس لها، ولكن بالمقابل فإنها تستند إلى سلطة عبد الرحمان بن زياد بن أنعم (ت 793/183) في نقل الخبر

وتداولها على يد مجموعة من المؤلفين من بينهم عيسى بن محمد بن سليمان بن أبي المهاجر صاحب "فتوح افريقية" الضائع، وأبي العرب تميم (ت 944/333) صاحب "طبقات علماء افريقية وتونس"، والرقيق القيرواني (ت 1029/420) صاحب "تاريخ افريقية والمغرب" وأبي بكر المالكي (ت نحو 1081/474) في "رياض النفوس في طبقات علماء افريقية" وكذا مجموعة من الإخباريين المشارقة الذين نقلوا عن ابن شداد الصنهاجي (ت بعد 1203/600)، الأمير الباديسي السابق والقائد العسكري في سلطنة صلاح الدين الأيوبي[1].

الرواية الأندلسية: هي الأبعد زمنيا والأكثر تفصيلا في أحداث الفتح، مبلورها الأساس هو المحدث-الفقيه عبد الملك بن حبيب (ت 852/238) وعدد من المؤلفين الأندلسيين ومغاربة المغرب الأقصى الذين يأتي على رأسهم ابن عذاري المراكشي (ت بعد 1312/712) وابن عبد الحليم.

إن هذه الروايات بكل ما تحتويه تشترك في عنصر "الذاكرة الجماعية" بمعنى استرجاع للماضي وبنائه وفق ما تقتضيه ظروف التدوين المتأخرة، مما يجعل البحث في الفترة الإسلامية الأولى صعبا للغاية، خصوصا وأن المصادر الخارجية، سريانية كانت أم يونانية، لا نجد فيها معلومات تخص العنصر المحلي "الأمازيغي" وتكتفي بالإشارة إلى الاستراتيجية الدفاعية البيزنطية. ولتأكيد غموض وتناقض الروايات سأحاول قراءة أربعة نماذج لمعرفة كيفية تقديمها لشخصية وأعمال القائد أبي المهاجر دينار.

إن الرواية الأقدم بمعنى العراقية التي نقلها البلاذري عن شيخه ابن سعد عن الواقدي لا تعط أهمية كبيرة لا لفتح المغرب ولا لأبي المهاجر دينار الذي تولى قيادة العمليات العسكرية بناءا على رغبة والي مصر الجديد مسلمة بن

[1] أنظر دراستي "ابن شداد الصنهاجي جامع أخبار المغرب الوسيط" مجلة التاريخ العربي، 22، (2002)، ص 27-96.

مخلد. فالأول هو خادم مطيع للثاني وعلى هذا الأساس كانت التولية بعد عزل عقبة بن نافع في فترة نجاح عسكري في جنوب شرق افريقية. بهذه الإشارة السريعة ينتقل الواقدي إلى القيادة الثانية لعقبة والانبهار بكراماته في بناء قيروان "عز الإسلام" وبالحملة التي لم يوقفها إلا البحر المحيط[1].

و تزداد مكانة أبي المهاجر دينار بصورة طفيفة في الرواية المصرية الممثلة بابن عبد الحكم الذي جمع عدد من الروايات ركزت بشكل كبير على "كرامات وخوارق" عقبة بن نافع في تشييده للقيروان. إن عزل هذا الأخير وتعويضه بأبي المهاجر دينار لم يغير في وضع الفتح ليرتكز كلام ابن عبد الحكم على "إساءة وعزل وسجن القائد السابق" إلى غاية التدخل الشخصي لخليفة دمشق لاطلاق صراحه. إن التدخل الإلهي واستجابته للدعوة الثأرية لعقبة كان لها وقع في نص ابن عبد الحكم من خلال سرد روايات تذهب في هذه الوجهة. إن الدور الإيجابي الوحيد لأبي المهاجر دينار في هذه الرواية يقتصر على التأسيس لاستقرار إسلامي في الأراضي المفتوحة انطلاقا من قاعدة القيروان الثانية[2]. ليس هناك أي إشارة للنشاط العسكري لهذا القائد في المناطق الواقعة غرب القيروان بما في ذلك ميلة، وإنما اكتفى الراوي بالتركيز على الرحلة القسرية له مصفدا في حديد أوصلته إلى غاية السوس الأقصى. لقد كانت نهاية أبي المهاجر في تهودة "موثقا في حديد" رفقة عقبة عندما سقطا في كمين محكم دبره له القائد المحلي المنعوت بكسيلة رفقة فيالق بيزنطية[3]. إن رواية ابن

---

[1] البلاذري، فتوح البلدان، بيروت، دار مكتبة الهلال، 2000، ص 226-227.

[2] ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، تح علي محمد عمر، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، 1995، .ص 224-225.

[3] نفسه، ص 225-226.

عبد الحكم على تقدمها مقارنة بالروايات اللاحقة لا تشير قط إلى نشاط أبي المهاجر بقسنطينة وميلة.

نفس النتيجة تقريبا نجدها في الرواية الإفريقية عندما تشير إلى قيادة أبي المهاجر للعمليات العسكرية بإفريقية وتكتفي بذكر بنائه لمعسكر تيكروان قرب قيروان عقبة وإلى بعض الحملات في المناطق الساحلية، في حين تغيب ميلة تماما عن هذه الأحداث[1]. وتضيف الرواية الإفريقية الثانية التي نقلها أبي بكر المالكي متأثرا فيها بالواقدي معلومات عن النشاطات العسكرية لأبي المهاجر دينار على الشريط الساحلي لإفريقية مستهدفة جزيرة شريك وقرطاجة، عاصمة إفريقية البيزنطية، مبرما صلحا لا تزال بنوده غامضة. غير أن المالكي ينفرد بذكر "أن أبا المهاجر دينار صالح بربر إفريقية، وفيهم كسيلة الأوربي، وأحسن إليه، وصالح عجم إفريقية، وخرج بجيوشه نحو المغرب، ففتح كل ما مر عليه حتى انتهى إلى العيون المعروفة بأبي المهاجر نحو تلمسان، ولم يستخلف على القيروان أحدا، ولم يبق بها إلا شيوخ ونساء، ثم رجع إليها فأقام بها"[2]. إن هذا النص هو الأقدم إشارة إلى النشاط العسكري لأبي المهاجر غرب القيروان ويتناقض مع لاحقيه حول توقيت الصلح مع كسيلة هل كان قبل أو بعد حملة المغرب الأوسط؟ بالنسبة للمالكي، للقاء كان قبل الحملة. وينقل المالكي نفس المعلومات تقريبا حول توثيق عقبة لأبي المهاجر بالحديد وتفاصيل متعددة

---

[1] أبو العرب، طبقات علماء افريقية وتونس، تح علي الشابي ونعيم حسن اليافي، تونس، الجزائر، 1985، ص 57، 71.

[2] أبو بكر المالكي، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وافريقية وزهادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم، تح بشير البكوش، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1983، ج 1، ص 33.

حول حملة السوس الأقصى منسوجة في غالبيها بخيالات حول انتصارات عقبة ومقتله رفقة أبي المهاجر دينار[1].

وتنفرد الرواية الأندلسية الممثلة في الأندلسي الأصل المراكشي الدار، ابن عذاري على تأخرها بمعلومات أكثر تفصيلا حول "ولاية أبي المهاجر إفريقية وعزل عقبة". ويستفاد من هذه الرواية أن سبب عزل عقبة من طرف مسلمة بن مخلد كان بسبب مخاوف هذا الأخير من طموحات مؤسس القيروان وأن سبب اختيار أبي المهاجر هو ارتباط هذا الأخير بخدمة والي مصر: "إن أبا المهاجر، كأحدنا، صبر علينا في غير ولاية، ولا كبير نيل، فنحن نحب أن نكافيه ونصطنعه". إن إساءة أبي المهاجر لعقبة وتأسيسه لمعسكر آخر منافس للقيروان كان له الأثر في تحديد مصير القائد الجديد، خصوصا وأن عقبة اشتكى للخليفة تصرفات المولى. إن تأثير الرمز العقبي كان كبير جدا إلى درجة أن ابن عذاري تناسى أبي المهاجر دينار حتى في الفصل المخصص له، واستهوته "كرامات" مؤسس القيروان وأعماله العسكرية التي أفضت إلى فتح "بلاد البربر"[2]. إن الجديد في رواية ابن عذاري المتأخرة هو الإشارة إلى أن "أبا المهاجر في ولايته لإفريقية، كان نهض إلى المغرب، فنزل عيونا عند تلمسان، تعرف الآن بعيون أبي المهاجر. فزحف منها إلى كسيلة، وهو في عدة من قبائل البرانس، فظفر به أبو المهاجر وعرض عليه الإسلام، وأحسن إليه أبي المهاجر واستبقاه"[3]. إن هذه الرواية المبتورة من وسطها التاريخي والتي جاءت في خضم تصوير علاقة عقبة بالقائد المحلي المنعوت بكسيلة لا يمكن التصديق بها بسهولة لغياب وسيط

---

[1] نفسه، ص 36-43.

[2] ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، بيروت، ج 1، ص 20-23.

[3] نفسه، ص 28-29.

تاريخي في علاقة أبي المهاجر بطبنيم مائي "عيون" الواقع ربما قرب تلمسان. هل عيون تلمسان نسبت لأبيَ المهاجر التاريخي أم الأسطوري؟ ما هو مصدر الخبر في هذه الرواية المتأخرة؟

إن رواية ابن عذاري المتأخرة لا يمكن في رأيي أنْ تخرج عن أساطير الرواة لأن المعطيات التاريخية المتوفرة لا تؤكد تماما اعتناق كسيلة الإسلام وإنما تحالف مع الفيالق العربية ضد الوجود البيزنطي وأن ما أقدم عليه عقبة هو القضاء على الاستراتيجية الأهلية الإسلامية التي نسجها سابقه. وتشترك رواية ابن خلدون للوقائع مع ابن عذاري في الإشارة إلى وصول أبي المهاجر إلى تلمسان وإلى إسلام كسيلة، غير أن صاحب "العبر" ربط المقاومة المحلية للفتح الإسلامي بـ"نصرانية" أوربة و"يهودية" جراوة مستعينين بالفرنجة[1] الذين لم يعرفوا قط بلاد المغرب في تلك الفترة. إن ربط أبي المهاجر بعيون تلمسان هي في اعتقادي من نسج الخيال، وجاءت في مرحلة تاريخية عرفت ميلاد طبونيم أسطوري "عيون أبي المهاجر" في مرحلة ما بعد القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، بعدما أشار إليها المالكي في "رياضه". كيف يمكن ربط طبونيم عربي "عيون" بمنطقة ذات ثقافة أمازيغية؟ وكيف يفسر غياب هذا الطبونيم في كتب الجغرافية الوصفية إذا كان مشهورا بهذا الحد في كتابات القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي؟

أبو المهاجر في القراءات الغربية المعاصرة

نتج عن ترجمة القسم الثالث من كتاب العبر لابن خلدون في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي من طرف البارون دوسلان (Le Baron de Slane) أن ظهرت إلى الوجود مجموعة من الكتابات العامة حول تاريخ المغرب الوسيط ومن بين هذه الكتابات "تاريخ أفريقيا الشمالية من أبعد الأزمنة إلى غاية الفتح

---

[1] ابن خلدون، كتاب العبر، بيروت، مؤسسة جمال للنشر، ج 6، ص 108-109.

الفرنسي" لأرنست مارسيي (Ernest Mercier) عضو الجمعية التاريخية الجزائرية La société historique algérienne والذي نشره عام 1888. في هذا النص ليس هناك أي جديد وإنما نقل لمعلومات صاحب العبر مع بعض التأويلات كاعتناق كسيلة للإسلام تحت التهديد بالقتل بعد انهزامه قرب تلمسان، ليبعد بذلك سياسة المهادنة التي تبناها أبي المهاجر[1].

مع اقتراب الإدارة الاستعمارية من الاحتفال بالذكرى المئوية الأولى لاحتلال الجزائر، عمدت مجموعة من المؤلفين الفرنسيين على نشر دراسات تتعلق بماضي الجزائر بصفة خاصة والمغرب بصفة عامة. ومن بين هذه الدراسات نجد كتاب "أسلمة فريقية الشمالية: القرون المظلمة للمغرب" لإميل فليكس غوتييه (Emile-Félix Gautier)الصادر عام 1927. إن هذا الكتاب الذي أثار زوبعة لدى الدارسين تطرق بصورة مفصلة للفتح الإسلامي، ولكن عكس الإخباريين العرب، فقد أضفى على المقاومة المحلية في الأوراس بقيادة "كسيلة والكاهنة" صفة القومية البربرية، بمعنى الإحساس بالشعور الوطني لدى الجماعات المحلية في تلك الفترة:

« Les héros de l'indépendance berbère, au moment de l'invasion arabe, sont comme on sait Koçeila et la Kahina. Ils ont été pendant des années les champions et les maîtres du Maghreb »[2].

إن المكانة الأساسية في كتاب غوتييه أعطيت للقادة المحليين في مواجهة "الغزوة" العربية[3] مهمشا بشكل مقصود القادة المسلمين الذين أشير إليهم في ثنايا النص في علاقتهم السلمية أو العسكرية بالشخصيات المحلية. وأخذ برواية ابن خلدون فيما يخص "اعتقال" أبي المهاجر دينار لكسيلة عند

---

[1] Ernest Mercier, *Histoire de l'Afrique septentrionale (Berbérie) depuis les temps les plus reculés jusqu'à la conquête française (1830)*, Paris, Ernest Leroux, 1888, vol. I, p. 204-205.

[2] Emile-Félix Gautier, *L'islamisation de l'Afrique du Nord : les siècles obscurs du Maghreb*, Paris, Payot, 1927, p. 240.

[3] *Ibid*, p. 241-255.

العيون المنسوبة للأول وبعلاقة هذا القائد المحلي بالبيزنطيين على شكل تحالف مع سكردید الرومي أو مسيحية أوربة. ويظهر اقتصار غوتييه على رواية ابن خلدون عدم اطلاعه على مختلف روايات الفتح وعلى توظيفه المقصود للقومية البربرية ضد الوجود الإسلامي.

إن تهميش دور أبي المهاجر دينار تواصل في الكتابات الغربية، خصوصا وأن دائرة المعارف الإسلامية في طبعتها الأولى والثانية لم تخصص أي مادة لا لأبي المهاجر ولا لمدينة ميلة، باعتبارهما لم يلعبا دورا رائدا في مسار تاريخ الإسلام الوسيط. لكن هذه الوضعية تغيرت في السنوات الأخيرة عندما زار الباحث الأمريكي وولتر كيغي (Walter Keagi) المنطقة وأنجز دراسة جديدة حول فتح العرب للمغرب انطلق فيها من النصوص العربية واليونانية والسريانية إضافة إلى المعطيات الميدانية في محاولة لإعادة قراءة أحداث الفتح. وهنا تبرز شخصية القائد أبي المهاجر كمهندس لاستراتيجية أهلية فشل فيها البيزنطيين. فقد أشار كيجي إلى نجاح سياسة أبي المهاجر في كسب تأييد العنصر المحلي ضد الوجود البيزنطي، ليشكل بذلك نقطة حاسمة في نجاح الحملات العسكرية في بلاد المغرب[1].

وتشترك نتيجة وولتر كيجي مع ما توصل إليه المرحوم موسى لقبال من أن أبا المهاجر ساهم باستراتيجيته الجديدة في تقدم عمليات الفتح بعدما نجح في كسب تأييد الجماعات المحلية ضد الإدارة البيزنطية في إفريقية[2].

---

[1] Walter Keagi, « La dynamique de l'expansion islamique en Afrique du Nord », conférence, Université Emir Abdelkader- Constantine, 2006.

[2] موسى لقبال، المغرب الإسلامي منذ بناء معسكر القرن حتى انتهاء ثورات الخوارج، سياسة ونظم، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، ص 37-38.

أسطورة جامع أبي المهاجر بميلة

لقد انطلقت مجموعة من الدراسات من نص متأخر زمنيا وبعيد جغرافيا للحديث عن فتح وإقامة أبي المهاجر دينار بميلة لمدة عامين بداية من 59 هـ/680[1]. إن هذا النص الوارد في "تاريخ الإسلام لمحدث وإخباري دمشق شمس الدين الذهبي (ت 1347/784) والقاهري ابن ثغري بردي (ت 1469/874) في كتابه "النجوم الزاهرة" ليثير الغرابة ويفتقد لأي تأصيل تاريخي على اعتبار أن كل روايات الفتح المدونة قديما لا تتحدث عنه. إن مؤرخ اليوم عليه أن لا ينطلق من مسلمات وإنما يخضع مادته الخبرية لمنهج نقدي يتعامل بموجبه مع نص ابن ثغري بردي بالمتأخر وليس بمصدر يمكن الاعتماد عليه. كما لا يمكن الاعتماد على تخمينات تجعل من أبي المهاجر مشيد جامع ودار الإمارة بميلة، وكلها معلومات تحتاج إلى مزيد من البحث.

إن نسبة بناء جامع ميلة لأبي المهاجر دينار لا يستند لأي مصدر تاريخي ولا أثري، بل بالعكس كل القرائن تذهب عكس ما روج له:

من الناحية التاريخية، إن أقدم نص يشير إلى جامع ميلة دون أي نسبة لأحد يعود إلى القرن الخامس الهجري/الثاني عشر الميلادي كما نجده في مسالك وممالك البكري، ثم في مرحلة تاريخية معينة يربط بالولاية "سيدي غانم"؟ كيف يمكن تفسير هذا الانتقال من المسجد الجامع إلى جامع الولي؟

إن بقاء جالية رومانو-يونانية بالمدينة يفند فكرة تحويل أو بناء جامع على أنقاض كنيسة، خصوصا وأن هذه الجالية حافظت على خصوصيتها بعد

---

[1] حول استغلال هذا النص أنظر عبد العزيز فيلالي وابراهيم بحاز، مدينة ميلة في العصر الوسيط دراسة سياسية، ثقافية، إدارية، عمرانية، قسنطينة، دار البلاد، 1998، ص 12-14.

الأسلمة عندما أشارت إليها أقدم النصوص تحت اسم المولدين إلى جانب العرب والعجم[1].

إن المعطيات الأثرية الحالية تفند بشكل كلي فكرة بناء الجامع زمن أبي المهاجر لتواجد عدة ستاتيغرافات بما في ذلك الإسلامية المتقدمة تحت جدران المسجد داخل جدار الكنيسة، مما يرجح مثل حال قسنطينة، عملية البناء في فترة زمنية متأخرة جدا عن زمن الإخضاع العسكري بعد اعتناق كافة عناصر الجالية الرومانو_لاتينية للإسلام.

إن محاولة نسبة مسجد ميلة لأبي المهاجر دينار وتجريده من اسم سيدي غانم هي عملية اغتيال لذاكرة المعلم التاريخي، يرفضها البحث التاريخي بصورة قطعية.

إن صورة المسجد قبل إجراء تعديلات هامة عليه من طرف الإدارة الاستعمارية تظهر بشكل واضح انتساب عملية البناء إلى القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، بمعنى النمط المعماري الإفريقي المتأثر بالفن البيزنطي المحلي الذي نلمسه على مساجد الفترة الأغلبية.

[1] البكري، المسالك والممالك، تح جمال طلبة، بيروت، دار الكتب العلمية، ج 2، ص 254.